٢٢٨

أضواء على الحركات الهدامة

الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين

بقلم

يوسف القرضاوي ، أحمد العسال

الناشر
مكتبة المنار بالكويت
ص ب ٦٢٣
هاتف ٣٢٦٦٥

مطابع المكتب الإسلامي - بيروت - ص.ب: ٢٧٧١ - برقيًا: (إسلامي)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المعركة بين الإسلام وخصومه معركة قديمة جديدة، وستظل قائمة ما بقي في الوجود حقائق وأباطيل .

وخصوم الإسلام صنفان :

صنف من متعصبي الأديان الأخرى، وخاصة المستشرقين والمبشرين، الذين يسوؤهم انتشار الإسلام، وامتداد نوره في كل قارة، رغم ما ينقص أهله ودعاته من طاقات وإمكانيات ورغم ما يعوقه عن الانطلاق من قيود داخلية وخارجية .

والصنف الثاني من الماديين الملحدين الذين يخاصمون الأديان جميعاً ويختصون الإسلام بمزيد من العداوة والنقمة ، لأنهم يعلمون أنه الدين الفذ الذي يحمل نظاماً كاملاً للحياة ، يزاوج بين الروح والمادة والفرد والمجتمع ، والدنيا والآخرة، وأنه الدين القادر على إمداد أتباعه بكل المقومات والطاقات

المعنوية والروحية التي تضمن القوة والغلبة في معركة الحياة .

وليس لهؤلاء وأولئك سلاح إلا تصيد الشبهات الواهية ، وتلفيق الأكاذيب والافتراء على الله وعلى الناس ، وعلى الحق والتاريخ .

وآخر ما رأينا من هذه الملفقات ما نشره شيوعيو العراق في الفترة الأخيرة مما عرف باسم « الكراسة الرمادية » . وقد انتظرنا حتى ترجم إلينا نصها الكامل من الإنجليزية إلى العربية وقرأناها كلمة كلمة ، فلم نجد فيها إلا الافتراء والتضليل اللذين لا يروجان عند البسطاء فضلاً عن المثقفين والعقلاء .

زعم هؤلاء — حسب تفسيرهم للتاريخ — أن ظهور الإسلام كان نتيجة للعوامل الاقتصاديةوالاجتماعية التي كانت تسود الجزيرة العربية قبل الإسلام وأن الوثنية كانت في طريقها إلى الفناء ، وأن التحنف — الميل إلى التوحيد — كان ظاهرة منتشرة . ومحمد إذن ليس رسولاً من الله ، والقرآن ليس وحي الله ، لأن « الله » هذا غير موجود في نظرهم .

شككك هؤلاء في تواتر القرآن ، وادعوا أن عدة « قرآنات » أخرى ألفت لمعارضته ، وزعموا أن هذا القرآن يعارض العلم والتقدم ، ويخبر بأمور لم تتحقق إلى الآن كقيام الساعة في وقت قريب ، واستغلوا ما قاله علماء المسلمين من وجود « متشابهات » في القرآن للتشكيك في بيانه ووضوحه .

وردد هؤلاء ما يقوله بعض المستشرقين عن «الحديث النبوي» وقيمته العلمية والتاريخية، وتحري علماء الإسلام في قبوله.

وقالوا عن العقيدة الإسلامية: إنها عقيدة «الجبر المطلق» وليس للإنسان في الإسلام حرية أو اختيار.

وادّعوا أن الصلاة منقولة من بعض الديانات القديمة، وأن المسلمين يحجّون إلى حجر في مكة.

وافتروا على الفقه الإسلامي في نشأته ومذاهبه وغايته، وادّعوا أنه نشأ في عهد الخلافة العباسية لتبرير أعمال الخلفاء الخ.

وزعموا أن الإسلام يؤيد الإقطاعيين ويعترف بالطبقية ويقر بالتفاوت الذي يجعل بعض الناس عبيداً لبعض. كما أنه يقر الرق، ويبارك ملاك الرقيق.

وزعموا فيما زعموا، أن الحاكم أو الخليفة في الإسلام نائب عن الإله أو وكيل له، وأن الشعب مسخر لطاعة الحاكم وأن بيت المال ملك خاص للخليفة.

وكرروا مفتريات المفترين عن وضع المرأة في الإسلام وطغيان الرجل على المرأة، وعن سياسة القتال والفتح الإسلامي الخ ... تلك الأكاذيب التي نعرفها.

والخلاف بيننا وبين هؤلاء القوم خلاف جذري، خلاف في الأصول نفسها. لهذا كان لابد في ردنا أن نقيم الأدلة على صحة الإيمان بوجود الله أولاً، وصدق النبوات ثانياً، وإذا

تأسس هذان الأصلان كان من السهل إثبات نبوة محمد وأنه رسول الله، وأن القرآن كتاب الله حقاً .

أما الشبهات والمفتريات الأخرى فإن دفعها ونقضها ليس بالعسير على أي دارس للإسلام .

ومن هنا لم نجد صعوبة أنا وزميلي الأستاذ أحمـــد العسال حين كلفنا بالرد على هذه «الكراسة» وما فيها من أغاليط وأضاليل .

ونرجو أن نكون بهذا الرد الموجز المركز قد أدينا بعض الواجب علينا في الذود عن ديننـــا ، والدفاع عن أمتنـــا . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

يوسف القرضاوي

حملة قديمة

الحملة على الأديان ليست بنت اليوم ولا وليدة الأمس وليست من مبتكرات المادية الماركسية التي زعمت أن الدين أفيون الشعوب .

قال الأديب الفرنسي « فولتير »: إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء .

وفولتير أيضاً لم يكن مبتكراً لهذا فمن قديم ظهر مثل هذا الزعم عند « السوفسطائيين » من اليونان الذين أنكروا حقائق الأشياء أو شككوا فيها وكان فيما روجوه من مغالطات وتشككات أن الإنسان في أول نشأته كان لا يخضع إلا للقوة لا للدين ولا القانون ثم كان أن وضعت القوانين ، فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة فهناك فكر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شيء وتسمع كل شيء ، وتهيمن بحكمتها على كل شيء [1] .

« ولسنا ننكر أن تكون هناك عقيدة معينة قد استحدثت في عصر ما أو أن يكون ثمت وضع خاص من أوضاع العبادات

(١) « الدين » للمرحوم الدكتور دراز ، ص : ٤٧ .

قد جاء مجلوباً مصنوعاً فذلك سائغ في العقل بل واقع بالفعل. أما فكرة التدين في جوهرها، فليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان .

التدين غريزة فطرية

يقول معجم «لاروس» للقرن العشرين : إن الغريــزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية ... وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي ، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية.

ويقول هنري برجسون : «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجــد قط جماعة بدون ديانة » .

ويقول «أرنست رينان » في تاريخ الأديان: «إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه وأن تبطل حرية استعمال العقــل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية » .

ويعلق الأستاذ محمد فريد وجدي على هذه الكلمة في« دائرة معارفه »فيقول في مادة « دين » : « نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها ، ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان بل إن هذا الميل سيزداد . . . ففطرة التدين ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال

والقبح وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه .

والحق أن الايمان بقوة عليا — خلقت هذا الكون وقامت بتدبيره ورعايته على أحكم نظام — ضرورة عقلية بعد كونه ضرورة فطرية وجدانية ، فإن العقل الإنساني بغير تعلم ولا اكتساب يؤمن بقانون السببية ولا يقبل فعلاً من غير فاعل ، ولا صنعة من غير صانع .

وبدون التدين والايمان سيظل هذا السؤال الذي أثاره القرآن حائراً بغير جواب (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض ؟) [الطور : ٣٥ — ٣٦] وبداهة لم يخلقوا من غير شيء وطبعاً لم يخلقوا هم أنفسهم ، ولم يزعم أحد أنه خلق ذرة في السموات أو في الأرض ، فلم يبق إلا الاعتراف بوجود الخالق العليم الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

والذين فروا من الاعتراف بالألوهية الخالقة لأنها شيء غير مشاهد ولا محسوس ولا يدخل تحت التجربة ، لم يمكنهم إلا أن يلجأوا إلى قوة غامضة خفية هي الأخرى أطلقوا عليها « الطبيعة ».

وقد كان الوثنيون والجاهليون أقوم فكراً وأصرح رأياً حين اعترفوا بموجب الفطرة ومقتضى العقل فلم يلفوا ويدوروا كهؤلاء الذين يقولون بالدهر والطبيعة ، فحين سئلوا من

خلق السموات والأرض ؟ قالوا في صراحة وصدق : خلقهن العزيز العليم . (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمرفسيقولون الله)[يونس: ٣١]

ارسال النبيين من آثار الرحمة الإلهية

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الإلهية الواسعة ألا يترك الناس سدى أو هملا يتخبطون على غير هدى أو يختلفون بغير حكم ولا مرجع ... فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه . وليضعوا لهم أسس الحياة الفاضلة ، وليرسموا لهم الطريق الى الله وإلى سعادة الآخرة والأولى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) [النساء: ١٦٥] .

وكان من حكمة الله أن يكون هؤلاء بشراً لا ملائكة يبعثون من بين أقوامهم ليكونوا آنس بهم وأعرف بأحوالهم وأقدر على التأسي بأخلاقهم.وقد تعجب بعض الناس أن يرسل الله بشراً، فرد الله عليهم: (قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا) [الإسراء: ٩٥] ، (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم) [الجمعة : ٢]

وقد أيد الله هؤلاء المرسلين بالحجة القاطعة والآيات

البينات على صدق دعوتهم وأنهم رسل الله حقاً ولم يملك المنصفون من معاصريهم إلاأن يذعنوا لهم ويؤمنوا برسالتهم (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) [آل عمران : ٥٣] ٠ وأوضح مثل على ذلك سحرة فرعون الذين انتقلوا من الإيمان بربوبية فرعون الى الإيمان الحق و (قالوا : آمنا برب هرٰون وموسى) [طه: ٧٠] (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا) [طه : ٧٢] .

وقد تعهد الله البشرية في شتى عصورها بأنبياء ومرسلين كانوا منارات هادية وقادة مبينين ومعلمين إلى أن أكمل الله الدين وختم الرسالات ببعثة النبي الأمي محمد بن عبد الله بالرسالة العامة الخالدة ليكون للعالمين نذيراً (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) [الأنبياء :١٠٧] .

رسالة الاسلام

يخطىء كل الخطأ من يحاول أن ينعت الإسلام بأنه رسالة أرضية اخترعها بشر ونسقها فكر إنسان ، أو أنه ظاهرة اجتماعية أوحت بها أسباب تاريخية أو عوامل اقتصادية . ...إن من يحاول هذه المحاولة يخدع نفسه أولاً ويكذب على الناس ثانياً .. ذلك أنه يعصب عينيه ويستر عقله عن كل عوامل المعرفة الصحيحة ، فهو يتجاهل التاريخ الصحيح ، ويضل عن الواقع الاجتماعي والعملي في جزيرة العرب

قبل الإسلام وبعده ... فإن أحوال القبائل العربية في مكة وما حولها معروفة في التاريخ كانت حياتها حياة انتجاع وسفر، وتجارة، وسمر ولهو، وحرب وخصام على ناقة أو فرس كما نعرف من حرب البسوس، وداحس والغبراء.

ومن ناحية العقيدة معروف كذلك أنه كان لكل قبيلة وثن تعبده وتستعينه وتستقسم عنده، وكانت الكعبة معظمة عندهم يتوارثون تعظيمها من قديم وكانت كل قبيلة تأتي بصنمها فتجعله حول الكعبة حتى بلغ عدد الأصنام في الكعبة ثلثمائة وستين.

ولم تكن الوثنية سطحية في بلاد العرب بل كانت متغلغلة في أعماق حياتهم: ظهر ذلك في حجهم ونذورهم وبحائرهم وسوائبهم وسائر شؤونهم ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

والتحنف قبل الإسلام لم يعرف به إلا أفراد معدودون كانوا أسلم فطرة وأنضج عقولاً من أن يجاروا تيار الوثنية في قومهم فهجروا الأوثان وتعبدوا على ما بلغهم من دين أبيهم إبراهيم، أو اعتنقوا ديانة كتابية كالنصرانية.

ومن هؤلاء أربعة نفر، ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم، فالقرشيون عمرو بن نفيل بن عبد العزى

العدوي ، وورقة بن نوفل الأسدي الذي قرأ الكتب القديمة ، وعرف النصرانية واتبعها ، وعثمان بن الحويرث الأسدي والرابع عبيد الله بن جحش بن أسد بن خزيمة ..

ولم يكن لهؤلاء دعوة أو أثر في قومهم يخفف من غلواء وثنيتهم وتمسكهم بأصنامهم حتى إن دعوة الرسول محمد إلى التوحيد لقيت استنكاراً بالغاً ورفضاً صارماً (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) [ص: ٥] .

ولمعرفة الرسول بعصبية قومه لوثنيتهم لم يفاجئهم بدعوته إلى التوحيد وتحسس طريقه إلى القلوب لمدة ثلاث سنوات ثم بدأ ينذر عشيرته الأقربين ويتدرج في التبشير بالدعوة ومع هذا لم يكد يعثر إلا على الفرد بعد الفرد مدة ثلاثة عشر عاماً لقي فيها مرير الأذى وصنوف العذاب هو وأصحابه واضطر أن يأمرهم بالهجرة الى الحبشة مرتين .

وأعقب هذا الاضطهاد القاسي في مكة صراع دامٍ في المدينة دافعت به الوثنية عن نفسها وألقت بكل ما تملك من أرواح وأموال حتى لا يقوم في الارض دين التوحيد ..

فهل يمكن أن يقال بعد هذا: إن الجزيرة العربية كانت تتطور إلى التوحيد بتأثير العوامل الاجتماعية ، وأن التحنف كان ظاهرة عامة قبل الإسلام . ؟ ! !

القرآن هو الآيه الكبرى على رسالة محمد

كان من حق الناس أن يقولوا لمن يدعي النبوة عن الله : إئت بآية إن كنت من الصادقين وقد أيد الله رسله بآيات كونية ناسبت عصرهم وما برع فيه قومهم من مثل قلب العصا حية لموسى ، وإحياء الميت وإبراء الأكمه لعيسى ..

ولما كانت دعوة محمد دعوة عامة خالدة للإنسانية كلها وللأجيال كلها شاءت حكمة الله أن يؤيده بآية عامة خالدة أيضاً ، آية عقلية معنوية هي (القرآن الكريم) .

(وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين)[العنكبوت : ٥٠].

(أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) [العنكبوت : ٥١] قد اشتمل القرآن على وجوه من الإعجاز خرست أمامها ألسنة المعارضين وانقطعت حجتهم أمام التحدي الواضح المثير :

(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) [الطور : ٣٤]

(قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) [هود : ١٣].

(فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)[البقرة : ٢٣] وحقت عليهم الغلبة والإذعان التي سجلها التاريخ والواقع .. وصدق قول القرآن

نفسه : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) [الإسراء : ٨٨] .

واستطاع هذا الكتاب المبين أن يحدث أكبر ثورة نفسية واجتماعية غيرت وجه التاريخ وأنشأت أمة من العدم قوتها من ضعف، وهدتها من ضلالة ، وجمعتها من شتات . فأصبح لها بفضل هذا القرآن كيان واحد وتشريع يحتكم إليه وأخلاق توجه سلوكها وأعمالها وجهة الخير، ورسالة عالمية تدعو الناس إليها (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)[الجمعة : ٢ – ٣] .

القرآن آية وهداية

وقد امتاز القرآن عن آيات الأنبياء جميعاً بأنه آية وهداية معاً أو كما وصف نفسه: (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) [البقرة : ١٨٥].

والآية المعجزة إذا كانت من جنس الرسالة والدعوة . كانت أدل على صدق من أيّد بها وأثبت عند العقل من الآيات الخارجة عنها .

وضرب بعض العلماء لذلك مثلاً : رجلاً ادعى في بلاد كثرت فيها الأمراض أنه طبيب وأن دليله على ذلك أنه

ألف كتاباً في علم الطب ، يداوي المرضى بما دونه فيه فيبرؤون فاطلع عليه الأطباء البارعون ، فشهدوا بأنه خير الكتب في الطب وما يتعلق به من عمل ثم عرض عليه من لا يحصى عدداً من المرضى وقبلوا ما وصفه لهم من الأدوية فبرئوا من عللهم ، وصاروا أحسن صحة ، فهل يمكن المراء في صحة هذه الدعوى – دعوى الطبيب – مع هذين البرهانين العلمي والعملي ؟ .

كلا وإن العلم بطب الأرواح أعلى وأعز منالاً من طب الأجسام وإن معالجة أمراض الأخلاق وأدواء الاجتماع أعسر من مداواة أعضاء الأفراد .

ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن مشتمل على العقائد الصحيحة والآداب العالية ، وأصول التشريع الاجتماعي والمدني ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عالج به أمة عريقة في الشقاق وحمية الجاهلية ، عريقة في الجهل والأمية ، ورذائل الوثنية ، فشفيت واتحدت وتعلمت الكتاب والحكمة وسادت الأمم من بدو وحضر ، مع أنه كان أمياً لم يتعلم شيئاً من العلوم ولم يتمرس في سياسة الشعوب .

« كفاك بالعلم في الأمي معجزة

في الجاهلية والتأديب في اليتم »

لو استدل ذلك الطبيب الجسداني على صحة دعواه بعمل غير مألوف للناس ، ولكن لا علاقة له بالطب ، لأمكن المراء في صحة

دعواه ، كذلك شأن هذا النبي في ادعائه أنه مرسل من الله لهداية البشر ، فإن كتابه العلمي المؤيد بنجاح العمل به ، أدل على كونه وحياً أوحاه الله إليه من جعل عصا حية أو إحيائه ميتاً ، لأن هذين — على غرابتهما — ليسا من موضوع الإرشاد والتعليم ، كما أنهما ليسا من موضوع الطب ، فهما إن دلا على صدق الرسول فدلالتهما ليست في أنفسهما .

والإتيان بعمل خارق للمألوف في العادة من سنن الكون ، هو دون الإتيان بالعلوم العالية الإلهية والتشريعية من غير تعليم ، فكيف بالإتيان بأنباء الغيب : الماضي والمستقبل ؟ فكيف بصلاح حال من عملوا بهذه العلوم ديناً ودنيا ؟ .

فالقرآن إذاً برهان على أن ما فيه من الطب الروحاني والاجتماعي وحي من المدبر الحكيم لا يماري فيه إلا معاند مكابر أو مقلد جاهل[1] .

اين المعارضون للقرآن

ظهر بعد نجاح الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية — لأسباب نفسية وقبلية — بعض مدعي النبوة ، فماذا كانت حجتهم ؟ وما هي كتبهم التي دعوا إليها الناس ، وما هي أعمالهم التي ترجمت رسالاتهم ؟ .

(١) « تفسير المنار » ج ١ ، ص ٢١٨ .

في العام التاسع والعاشر من هجرة الرسول ، ثم في عهد أبي بكر ، تنبأ مسيلمة الذي ظهر في اليمامة في قومه بني حنيفة مناوأة لقريش أن تستأثر بالنبوة في زعمهم وزعمه .

والأسود العنسي الذي تنبأ في اليمن . وطلحة بن خويلد الأسدي الذي ظهر في قبيلة (أسد) .

وسجاح بنت الحارث التي ظهرت في (بني تغلب) .

وقد تحدثت الروايات عن مسيلمة وغيره أنهم أنشأوا كتباً يعارضون بها القرآن ، لم تسع ذاكرة الأدب والتاريخ شيئاً منها إلا ما تندرت به الروايات من مثل قول مسيلمة : « يا ضفدع يا بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » .

وسواء صحت هذه الروايات أو لم تصح فإن التاريخ الذي ترك لنا تراثاً هائلاً من الشعر والحكم والأمثال وغيرها لم يجد شيئاً ذا قيمة أدبية يمكن أن يسجله أو يحتفظ به .

ولم يستطع باطل هؤلاء أن يصمد طويلاً أمام الإسلام الحق فسرعان ما انتهى أمرهم ، بعضهم بالموت وبعضهم بالإذعان للإسلام كما فعل طلحة الذي انضم الى صفوف المجاهدين المسلمين بحماسة بالغة ، يكفر بها عن ماضيه في مناوأة الإسلام .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)
[الأنبياء : ١٨] .

وفي عهد الدولة العباسية تحكي لنا بعض الروايات عن أشخاص اتهموا بمعارضة القرآن منهم : ابن المقفع . ولم تعزز هذه التهمة بذكر نصوص هذا القرآن المقلد .

فقد ذكر ابن قيم الجوزية والباقلاني أن ابن المقفع عندما انتهى الى قوله تعالى : (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) [هود : ٤٠] إلى قوله تعالى : (وقيل بعداً للقوم الظالمين) [هود : ٤٤] . عدل عن إنشاء قرآنه وقال : هذا ما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، وترك المعارضة ، وأحرق ما كان قد اختلقه .

ويقول الباقلاني : إن قوماً ادعوا أن ابن المقفع عارض القرآن في كتابه « الدرة اليتيمة » ولم يجد الباقلاني فيما أنشأ ابن المقفع بهذا الكتاب ما يصح أن يكون تقليداً للقرآن [١] .

ومن الذين اتهموا بهذه التهمة وهي محاولة محاكاة القرآن : « أبو العلاء المعري ، في كتاب « الفصول والغايات » ، وما ورد في هذا الكتاب : « أقسم بخالق الخيل. والريح الهابة بليل ، بين الشرط ومطالع سهيل ، إن الكافر لطويل الويل. وان العمر لمكفوف الذيل . فعد مدارج السبيل ، وطالع التوبة من قبيل تنج وما إخالك بناج » .

(١) «القرآن» لمحمد صبيح ، ص: ١٥٨ .

ويقول الرافعي في إعجاز القرآن [1] : ولا ريب أن أن هذا فرية على المعري أراده بها عدو حاذق ؛ لأن الرجل أبصر بنفسه، وبطبقةالكلام الذي يعارضه ، وما أراه إلا أعرف الناس باضطراب أسلوبه ، والتواء مذهبه .. الخ .

ويقول طه حسين في كتابه «مع أبي العلاء في سجنه»[2]: هل أراد أبو العلاء إلى معارضة القرآن في الفصول والغايات كما ظن بعض القدماء ، نعم ، ولا .

نعم : إن فهمنا في المعارضة مجرد التأثر ومحاولة المحاكاة، إن فهمنا من المعارضة أن أبا العلاء قد نظر الى القرآن على أنه مثل أعلى في الفن الأدبي فتأثره ، وجد في تقليده . كما يتأثر كل أديب بما يعجب به من المثل الفنية العليا ؛ ذلك شيء لا شك فيه ، فأيسر نظر في كتاب « الفصول والغايات » يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلد قصار السور وطوالها ، وليس المهم أنه وفق في هذا التقليد أو لم يوفق من المحقق أن التوفيق لم يقدر له كما لم يقدر لغيره ، بل من المحقق أيضاً أنه لم يظفر إلا بمثل سجع الكهان، ولكن المهم أن هذه المحاولة ظاهرة ملموسة في الكتاب ولا تلزمه إثماً ولا حوباً .

ولا : إن فهم من المعارضة الاستجابة للتحدي ومحاولة الإتيان بسورة أو سور مثل القرآن فهذا خاطر ما أحسبه

(١) ص : ١٨٩ .
(٢) ص : ٢٣٦ .

خطر لأبي العلاء ، فقد كان أشد تواضعاً من أن يبلغ به الكبر الى هذا ، وقد كان أعقل من أن يطاول ما لا سبيل إلى مطاولته ... الخ .

وآخر ما عرفنا من محاولات المتنبئين الذين يتحدثون عن صلتهم بوحي السماء ، وأنه ينزل عليهم قرآنا ، كما كان ينزل القرآن على محمد هي محاولات : غلام أحمد الهندي القادياني ، وميرزا علي الباب ، وتلميذه البهاء .

ومن حسن الحظ أن أتباع هؤلاء لا يظهرون هذه القرآنات المزعومة ، بل يسترونها كما تستر العورات . . ومن استطاع بوسيلة ما أن يقرأ شيئاً من هذه الكتب لم يجد إلا الغثاثة والتفاهة الفكرية والبيانية ... وخرج منها بيقين أعمق بأن هذا القرآن من عند الله (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) [هود : ٢] .

الاسلام عقيدة ونظام

والإسلام الذي بعث به محمد وكان القرآن مصدره الأول ليس — كما يظن القاصرون — ديناً لاهوتياً ، وليس عقيدة فقط تعنى بالجانب الروحي للإنسان دون أن تعنى بتنظيم علاقته بالكون ، وعلاقته بالحياة ، وعلاقته بإخوانه بني الانسان أفراداً وأسراً ومجتمعات ودولا .

كلا ان الإسلام عقيدة شاملة ينبثق عنها نظام عالمي كامل

تقوم على أساسه أمة عالمية متوازنة أبرز سماتها ما وصفها به القرآن :

(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) [البقرة : ١٤٣] ، (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) [آل عمران : ١١٠] .

مزايا العقيدة الاسلامية

وللعقيدة الإسلامية مزايا وخصائص لا تتوافر لغيرها من العقائد الدينية فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ، تتلخص في أن وراء هذا العالم المنسق البديع المحكم رباً واحداً ، خلقه ونظمه ، وقدر كل شيء فيه تقديراً وهذا الرب والإله ليس له شريك ولا شبيه ، ولا صاحبة ولا ولد ، بل : (له ما في السماوات والأرض كل له قانتون) [البقرة : ١١٦]

وهذه عقيدة واضحة مقبولة ، فالعقل دائماً يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ويريد أن يرجع الأشياء دوماً إلى سبب واحد والواقع المطرد يثبت أبداً أن تعدد الإرادات لا ينتج عنه أثر متكامل أو نظام متسق والقرآن يقرر هذه الحقيقة فيقول : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) [الأنبياء : ٢٢] . (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) [المؤمنون : ٩١].

وهي عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ، و لا مناقضة لها . بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [الروم : ٣٠].

وهي عقيدة ثابتة محددة ، لا تقبل الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل ، فليس لحاكم من الحكام، أو مجمع من المجامع العلمية أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية ، أن يضيف إليها ، أو يحور فيها ، وكل تحوير أو إضافة مردود على صاحبه ونبي الإسلام يقول : « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » أي مردود عليه والقرآن يقول : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) [الشورى : ٢١] .

وعلى هذا فكل البدع والخرافات ، والإضافات التي لصقت بعقائد المسلمين أو دست في بعض كتبهم ، أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه.

شبهات حول العقيدة « الجبر والاختيار »

مسألة الجبر والاختيار ، مسألة حار العقل البشري في الوصول إلى رأي قاطع فيها،وتنازع فيها الفلاسفة ، وعلماء

الأخلاق والنفس والتربية وغيرهم ، منذ تفلسف الإنسان الى اليوم وبحث .

وعقيدة الإسلام في هذا هي : العقيدة المتوازنة المطابقة للفطرة السليمة والواقع المشاهد .

فالإنسان بالنسبة لهذه العقيدة ، حر مسؤول عن نفسه وعمله — في دائرة أعماله الاختيارية — له أن يقدم وله أن يحجم ، كما تشهد بذلك بديهته وإحساسه ، وكما تشهد نصوص القرآن نفسه : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) [الكهف : ٢٩] (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) [البقرة ٢٥٦] (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) [الدهر : ٢٩] (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) [المدثر : ٣٧] (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) [فصلت : ٤٦] (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) [الإسراء : ٧] (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) [البقرة : ٢٨٦] إلى غير ذلك من آيات تبلغ الستين أو تزيد ، كلها تقرر حرية الإنسان وكسبه ، ومسؤوليته عن عمله : (ألا تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى•وان سعيه سوف يرى.ثم يجزاه الجزاء الاوفى) [النجم : ٣٨ — ٤١].

ولم يكتف القرآن بهذا التقرير الايجابي ، ولكنه زاد على ذلك فحمل بقسوة على الجبريين الذين يلقون بشركهم

وأوزارهم على كاهل القدر محتجين بمشيئة الله تعالى في فعل ما فعلوا ، أو ترك ما تركوا .

وفي أربع سور من القرآن يرد الله تعالى على هذا الزعم الباطل في سورة الأنعام الآية ١٤٨ – ١٤٩ : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون . قل : فلله الحجة البالغة) .

وفي سورة النحل – الآية : ٣٥ (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) .

وفي سورة يس – الآية : ٤٧ (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين) .

وفي سورة الزخرف – الآية : ٢٠ (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) .

وبهذه الردود الصريحة على الجبر من القدماء (قل هل عندكم من علم .. ؟) (كذلك فعل الذين من قبلهم ..) (إن أنتم إلا في ضلال مبين) (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) عرف موقف القرآن الحاسم من مشكلة الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية .

بيد أن الإنسان — كما هو الواقع — ليس مطلق الإرادة، كامل الاختيار، بحيث يفعل كل ما يشاء وينفذ كل ما يريد، ولو فعل لكان إلهاً.

ولم يستطع أحد — مهما بلغ في الانتظار للحرية الإنسانية — أن ينكر محدودية الإرادة البشرية، فحكموا فيها الوراثة أو البيئة أو كليهما، وعبر عن ذلك بعض الفلاسفة بقوله: « الإنسان حر في ميدان من القيود ».

حتى أولئك الماديون الجدليون قيدوا الإنسان بوسائل الإنتاج وظواهر الاقتصاد فهي التي تكيف تفكيره وسلوكه. وتوجه سير أحداثه، وبذلك نزلوا بالإنسان إلى أحط مستوى من الجبرية حين جعلوه عبداً خاضعاً لمظاهر المادة، لا سيداً مهيمنا عليها كما يقرر الإسلام.

هذه الحقيقة المتفق عليها — محدودية الإرادة البشرية — قررها الإسلام في صورة أشرف وأكرم للإنسان من الجبرية المادية أو التاريخية فالإنسان في عقيدة الإسلام حر مختار في دائرة مارسم الله للوجود من سنن يجريها بقدرته ومشيئته، ووفق علمه وحكمته، على أجزاء الكون كله، ومنها هذا الإنسان.

الإنسان إذاً حر، لأن الله أراد له الحرية أو هو يشاء، لأن الله قدر له أن يشاء: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) [الدهر : ٣٠].

ولا عجب أن يذكر القرآن — بجانب حرية الإرادة

الإنسانية – عمل الإرادة الإلهية ، وهيمنة القدر الأعلى ، الذي يرعى الانسان والكون جميعاً (إنا كل شيء خلقناه بقدر) [القمر : ٤٩] . (ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً) [يونس : ٩٩] ، (فعّال لما يريد) [هود : ١٠٧] ، (إن ربك يبسط الرزق لمن شاء ويقدر) [الإسراء : ٣٠] .

وإيمان المسلم بقدر الله ليس ايماناً بعقيدة جبريـــة ولا بمذهب أهل الصدفة والاتفاق ، وانما هو إيمان بأن الكون لا يمشي بغير غايـــة ولا يسير بغير تدبير ، كيف وكل ذرة من ذراته في الأرض أو في السماء يحيط بها علمه وتجري عليها مشيئته وقدرته وفق حكمته البالغة ، ورحمته الواسعة ... (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) [سبأ : ٣] .

هذا والإيمان بالقدر على هذا النحو لا ينافي الاجتهاد في العمل ، واتخاذ كل مـــا يمكن من أسباب ، فإن الله كما كتب المسببات كتب الأسباب ، وكما قدر النتائج قدر المقدمات ، فهو لا يقدر للطالب مثلاً النجاح فحسب بحيث يصل الى هذه النتيجة عمل أو لم يعمل،ولكنه تعالى قدر له النجاح ، بوسائله من جد وحرص وانتباه ووعي وصبر ومداومة إلى آخر هذه الأسباب فهذا مقدر مكتوب وذاك مقدر مكتوب .

وإذاً فالأخذ بالأسباب لا ينافي القدر بل هو من القدر

أيضاً ولهذا حين سئل صلى الله عليه وسلم عن الأدوية والأسباب التي يتقى بها المكروه : « هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ » كان جوابه الفاصل : « هي من قدر الله » . ولما انتشر الوباء في بلاد الشام قرر عمر بمشورة الصحابة ، العدول عن دخولها والرجوع بمن معه من المسلمين ، فقيل له : أتفر من قدر الله يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت إن نزلت بقعتين من الأرض إحداهما مخصبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت المجدبة رعيتها بقدر الله .

والرسول صلى الله عليه وسلم وهو أقوى الناس إيماناً بقدر الله كان اكثر الناس اتخـاذاً للأسباب وعملاً بمقتضاها ، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش ، وبعث الطلائع والعيون ، ولبس المغفر على رأسه ، وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة ... إلى آخر ما نعرف من سيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه المهتدين .

ومع وضوح هذه القضية في الإسلام على نحو ما رأينا قولاً وعملاً ، ونظراً وتطبيقاً فإن النبي صلى الله عليه وسلم من الناحية العملية كمرب وقائد وإمام أمر أصحـابه — سداً للذريعة ودرءا للفتن — أن يغلقوا أبواب الجدل العقيم حول المسائل الشائكة التي حارت فيها العقول من قديم ،

وهدى الوحي الإلهي الناس فيها الى القدر الذي فيه نفعهم في الدين والدنيا ... ومنها « مسألة القدر » .

قال الشيخ محمد عبده : « ولكن واأسفاه نتأت رؤوس بين المسلمين كأنها رؤوس الشياطين ... جاء الموالي من عجم الفرس والرومان ، ولبسوا لباس الإسلام ، وحملوا إليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق ، وأحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد ، وخالفوا الله ورسوله في النهي عن التكلم في القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزوروا الكلام حتى كان ماكان من تفرق المسلمين شيعاً ، والله يقول لنبيه : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) [الأنعام : ١٥٩] .

وجد بين المسلمين طائفة تعرف (بالجبرية) ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يعذلها الحق ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ، وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار وهو مذهب الجبر والعمل وصدق الإيمان ... الخ .

حول الآخرة والإيمان بها

يثير بعض الماديين المتحذلقين غباراً حول ما ذكره القرآن ، بل الكتب السماوية جميعاً عن انتهاء هذه الحياة ، وقيام الساعة ، ويوم الجزاء ، والجنة والنار .

وكان مماأثاره هؤلاءأنالقرآ نيقول : (لعل الساعة تكون قريباً) [الأحزاب :٦٣] وقدمضى أكثر من ثلاثةعشر قرناً ، ولم

تقم الساعة بعد ونسي هؤلاء أو تناسوا أن القرب والبعد مسألة نسبية ، وألف عام أو أكثر ليس إلا زمناً يسيراً وعهداً قريباً بالنسبة لعمر الدنيا وخاصة إذا عرفنا ما يقوله علماء الجيولجيا الذين يقدرون عمر الأرض بالملايين من من السنين والقرون ، ونضيف إلى هذا أن محمداً خاتم الأنبياء ، وأن رسالته هي الكلمة الأخيرة من الله للناس . وبذلك يكون معنى القرب واضحاً ، فلا نبي بعده ، ولا رسالة بعده حتى تقوم الساعة .

أما الحياة الآخرة فهي نشأة أخرى يستوفي فيها كل عامل جزاء عمله بالعدل التام والقسط الاوفى ، فكثيراً ما تقصر الحياة الاولى أن تكافىء الاخيار بما قدموا ، أو تجزي الاشرار بما اسرفوا ، والايمان بوجود إله عادل حكيم يستوجب وجود هذه الدار الأخرى (ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) [النجم :٣١] (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) [المؤمنون : ١١٥] ، (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار) [ص:٢٧–٢٨] .

والإيمان بدار الجزاء والخلود ليس معناه اطراح الدنيا ، واستدبار الحياة والعيش فيها عيشة التواكل والتمني الفارغ..

كلا فإن استحقاق السعادة في الآخرة لا ينال إلا بالعمل الدائب والجد المتواصل (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) [النساء : ١٢٣ – ١٢٤].

وحسبنا في هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن تبعهم باحسان ما فهموا الحياة ولا عاشوها إلا سعياً وكفاحاً ، وضرباً في الارض ، وسعياً في كل ميدان من ميادين الحياة ، لم يقعدوا ولم يكسلوا انتظاراً للجنة وما فيها من نعيم ، وللآخرة وما فيها من راحة ، كيف وقرآنهم يقول :(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) [الملك : ١٥] ، (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) [التوبة : ١٠٥]

نظام الإسلام

والنظام الإسلامي لا يقتصر على ناحية من نواحي النفس أو المجتمع أو الحياة ، أو يهتم بها على حساب غيرها . . . كلا إنه يشمل كل النواحي وينظم كل العلاقات الروحية والمادية ، الفردية والاجتماعية ، ويقيمها جميعاً على أساس من التوازن العدل فيما بينها بالقسطاس المستقيم ، فــلا

يطغي المادة على الروح ، كما هو سمة اليهودية ، ولا يهضم جانب المادة من أجل الروح كما هو دعوى النصرانية ، ولا يطغي الفرد على حساب المجتمع كما هو نظام الرأسمالية ، ولا المجتمع على حساب الفرد كما هو الشأن والواقع في الشيوعية .

ذلك أن هذا النظام لم يأت نتيجة ثورة جامحة كانت رد فعل لأوضاع جائرة فقاومت التطرف في اليمين بالتطرف في اليسار كما هو الشأن في الثورات التي جمحت دائماً وجاءت بأنظمة شكا الناس منها وعدلوها بعد زمن قليل .

ولم يضع هذا النظام فرد أو مجموعة أفراد من البشر تحكم عليهم مواريثهم وبيئتهم وظروفهم وثقافتهم — فضلاً عن أهوائهم وشهواتهم — فيتجهون بالنظام الذي يضعونه وجهة ذاتية توافق تكوينهم الشخصي ، وظرفهم الزمني ، ووضعهم الإقليمي ونزوعهم القومي .. ولذلك لا يلبث الناس بعد حين أن يتبينوا نقصاً أو انحرافاً فيما وضعوا أو وضع لهم من نظام .. فيقومون أو يطالبون بالتغيير والتعديل والتبديل...أما نظام الإسلام فواضعه هو الله رب الناس ملك الناس إله الناس لا يتحيز لجنس على جنس ولا لطبقة على طبقة ، ولا لجيل على جيل لأنهم جميعاً عباده وهو رب العالمين ، كما أنه تعالى لسعة علمه لا تخفى عليه مصلحة ، ولسعة رحمته لا يريد لعباده عسراً ولا عنتاً (يريدالله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) [البقرة: ١٨٥]

ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) [المائدة:٦] .

عبادة الله وحده

وأول ما شرعه نظام الإسلام هو تنظيم العلاقة بين الله وبين عباده . فإن العباد لم يخلقوا أنفسهم ، ولا أنشأوا في الارض أو في السماء شيئاً مما حولهم من نعم غامرة ، ورحمة سابغة، فحق الخلق لهم والإنعام عليهم ، والتكريم لهم على من سواهم من الخلق .. يقتضيهم أن يقوموا بشكر ربهم ويعرفوا له حقه ، فيعبدوه وحده لاشريك له ، ويخلصوا له الدين هذا ما تنادي به الفطرة السليمة وهو عين ما جاء به الإسلام: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) [البينة : ٥] .

وقد نقى الإسلام العبادة مما ألصقها به أهل الملل والنحل المختلفة ، من طقوس شركية ووساطات زعموها بين الله وعباده وابتداعات وثنية لم يأذن بها الله ، فالصلاة اتجاه الى الله وحده لا يتوقف على إذن كاهن ، ومكان خاص فالأرض كلها مسجد ، وأيما رجل مسلم أدركته الصلاة أذن وكبر وصلى .

والإمام في صلاة الجماعة – التي فضلها الإسلام على صلاة الفرد بدرجات كبيرة – ليس رجل كهنوت وإنما

هو واحد منهم ، يقدمونه لعلمه أو صلاحه ، يستمعون له إذا قرأ ويصححون له إذا أخطأ .. ومرد القبول في صلاة الجميع الى الله وحده الذي يعلم الصادق من غيره (إنما يتقبل الله من المتقين)[المائدة : ٢٧] .

وهذه الصلاة الإسلامية بكيفيتها ، ومواقيتها وشروطها ، وما يتلى فيها من أقوال ، وما يؤدى فيها من أعمال ،لم تعرف لدين ، ولا لمذهب من قبل ، إنها الصلة اليومية للمسلم بربه ، هي طهارة للجسد ، وزكاة للنفس وتربية للخلق ، وتنمية للوازع الأدبي (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) [العنكبوت : ٤٥] .

كما أنها بما شرع فيها من جمعة وجماعة رباط اجتماعي وثيق ومدرسة يتعلم فيها المسلم بطريقة عملية ، النظام والإخاء والمساواة وهي بما اشترط لها من استقبال قبلة واحدة تعلم المسلمين في انحاء الأرض وحدة الغاية والفكرة والاتجاه .

والحج رحلة يتجه فيها المسلم بدينه وقلبه الى بيت جعله الله رمز التوحيد والوحدة : ذلك البيت الذي بناه إبراهيم الخليل محطم الأصنام وهـادم الشرك والوثنية وأبو الأنبياء المرسلين . والذي أمره الله بالتأذين بالحج في الناس : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ؛ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) [الحج : ٢٦،٢٨] .

لكن هذه العبادة التي وضع أساسها إبراهيم خالصة لله .. لم يلبث كر الأيام ومر السنين أن بعد بالناس عن شرع الله فيها ، وجرهم الجهل والهوى والخرافة ، فاتخذوا من دون الله أوثاناً وضعوها في بيت التوحيد وبدلوا في شعائر الحج ومناسكه فطافوا بالبيت عرايا وقدموا القرابين للأصنام وخلطوا ما بقي من التوحيد بما ابتدعوا من شرك فكانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » يعنون بهذا الشريك أصناماً لهم .

جاء الإسلام والقوم على هذه الحال فمحا معالم الشرك وحطم النبي بيده الأصنام التي نصبوها حول الكعبة –يوم الفتح – وهو يقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) [الإسراء:١٨] وخلصت الكعبة للتوحيد، ورد النبي ﷺ الحج إلى ما كان عليه في عهد أبيه إبراهيم وخلصه من آثار الوثنية الجاهلية وأصبح شعار الحج : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » وما ربط الله شعائر الحج بأماكن معينة في البلد الحرام مكة إلا لأنها أرض الذكريات وميراث إبراهيم ، ونبت الدعوة ، فهي وصلة بين قديم المؤمنين وجديدهم وكل ما يقوم به المؤمنون من أعمال في الحج إنما هي رموز لها دلالتها وإيحاءاتها في أنفسهم مجردة من أي قصد ذاتي لها إلا قصد التعبد لله باتباع ما أمر وأداء ما أوجب ، وقديماً وقف عمر أمام الحجر الأسود وقال : « أيها الحجر إني أقبلك وأنا أعلم أنك لا تضر ولا تنفع

ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

أفيقال بعد هذا: إن المسلمين انما يحجون إلى حجر أسود أو أحمر يسجدون له ويتبركون به ؟

إنما كان الحج قذى في عين أعداء الإسلام لأنه المؤتمر الإلهي الجامع ، الذي يتنادى إليه المسلمون من كل فج وصوب فيربط بين قلوبهم برباط الأخوة الإسلامية العامة ، ويذكرهم بوحدة الهدف ، ووحدة الآمال والآلام ، ويوحي إليهم أن يعملوا ويتعاونوا ليعودوا من جديد خير أمة أخرجت للناس وهذا ما تغص به حلوق أعداء الإسلام !

وحسبنا هذه الكلمة الموجزة في هاتين العبادتين ، وهي كافية في التعبير عن روح الإسلام في تنظيم العلاقة بين الله والناس .

العلاقات الانسانية

ولننظر الآن كيف نظم الإسلام العلاقات بين الناس هل أيد الإسلام الإقطاعيين ؟ هل أقر الظلم الاجتماعي ؟ هل أعان طبقة على طبقة أو قوياً على ضعيف ؟ هل ترك المجتمع تتحكم فيه الفوارق المصطنعة من عنصرية ، أو وراثة حسب أو جاه ؟ .

ذلك ما نجيب عنه في الصفحات التالية :

إن أدنى دراسة لتعليم الإسلام تبين أنه ليس دين طبقة

خاصة أو فئة معينة إنما هو دين قامت أسسه الاجتماعية على : الأخوة والعدالة ، والمساواة ، وضح ذلك في شعائره وعباداته كما وضح ذلك في أنظمته الاقتصادية والسياسية .

العلاقة بين الاغنياء والفقراء

اعترف الإسلام بالتفاوت الفطري المعقول في الأرزاق بين الناس ، إذ قبل ذلك ثبت تفاوتهم الفطري في القدر والمواهب والملكات والطاقات .

والإسلام — كدين يعترف بالفطرة ويسمو بها ولا يقاومها — اعترف بالملكية الفردية الناشئة عن سبب مشروع ليشبع بذلك الدوافع البشرية الفطرية في حب التملك والمنافسة والادخار . ولكن الإسلام لا يحترم الملكية الفردية إذا نشأت عن سبب غير مشروع ، كالغصب ، والسرقة الجلية ، أو الخفية ، كالهدايا للحكام ، واستغلال النفوذ ، وأخذ الرشوة والتحايل على أكل أموال الناس بالباطل بل يصادر هذه الملكيات مهما طال عليها الزمن واختلف الليل والنهار ، فطول الزمن لا يبيح المحظور ، ولا يقلب الحرام حلالا .

والإنسان في الاسلام ليس مالكاً حقيقياً ، يتصرف في ماله كيف يشاء ، لا ، فالمال مال الله ... ، ومعنى هذه العبارة أنه مال الجماعة ، والغني موظف على رعايته

وتنميته ، وإنفاقه بما يوافق صالح الجماعة لا بما يضارها ، فهو مستخلف على المال (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) [الحديد : ٧] (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) [النور : ٣٣] .

فالملكية إذاً : وظيفة اجتماعية ، والغني إذاً مطالب إزاء مجتمعه بواجبات مالية أدناها الزكاة ... وهي ليست تبرعاً ولا إحساناً يعطيه الغني للفقير فيشعر بالاستعلاء ، ويشعر الفقير بالمذلة والهوان ، بل هي حق معلوم وضريبة مفروضة تأخذها الحكومة بواسطة « الجباة » العاملين عليها ، وتنفقها على المحتاجين أو على المصالح العامة (وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله) [التوبة : ٦٠] .

والزكاة ليست تعليماً فرعياً أو ثانوياً من تعاليم الإسلام بل هي ركن من أركانه وأصل من أصوله لا يكون الفرد مسلماً إلا بأدائها ، ولا تكون الدولة مسلمة إلا بالعمل على تحصيلها وجبايتها .. وقد حدثنا التاريخ أن أرباب المال من العرب عز عليهم دفع هذه الزكاة ، فأبى أبو بكر أن يقبل أي تهاون في حق الفقير وجهز أحد عشر لواء لمحاربة الرأسماليين الأشرار وقال كلمته المشهورة :« والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » .

وقد أشاع بعض المغرضين كلاماً مرذولاً حول بيت المال الذي تجمع فيه الزكاة والموارد الاخرى للدولة الإسلامية ، زاعمين أن هذا المال إنما يجمع للخلفاء

والسلاطين وأن بيت المال إن هو إلا خزينة خاصة ينفقون منها كيف شاؤوا دون معقب أو محاسب .

والحق الذي يعرفه كل من درس شريعة الإسلام وتاريخه ، أن بيت المال ليس ملكاً للخليفة ، وإنما هو ملك للأمة جميعاً ، والخليفة إنما هو خازن أمين ، ليس له منه إلا راتبه المعروف كما قال أبو بكر : « أعطوني كأوسط رجل من قريش ليس كأوكسهم ولا أعلاهم » ، ذلك أن أبا بكر نزل صبيحة بويع بالخلافة إلى السوق كعادته ليتاجر ، ويقوت نفسه وأهله ، فلقيه عمر فقال له : إلى أين ؟ قال إلى السوق ، قال عمر : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : من أين أطعم عيالي ، فقال عمر : انطلق يفرض لك أبو عبيدة أمين بيت المال ، فانطلق إلى أبي عبيدة ، فقال للخليفة : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره .

وقال عمر : إنما أنا وهذا المال. كولي اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف .

وأبى علي بن أبي طالب أن يأخذ من بيت المال شيئاً لنفسه وأهله . هذا هو مسلك الراشدين من حكام المسلمين وخلفائهم ، أما انحرافات بعض الحكام فليست حجة على الإسلام ولا يسأل عنها .

الاسلام يقيم التوازن بين الاغنياء والفقراء

واعتراف الاسلام بالتفاوت الطبيعي في الرزق ، ليس معناه أن يدع الغني يزداد غنى ، والفقير يزداد فقراً ، بل تدخل بتشريعه القانوني ، وتوجيهه الأخلاقي لتقريب الشقة بين الأغنياء والفقراء ، فحد من طغيان أولئك ، ورفع من مستوى هؤلاء . . . حرم على الأغنياء الكسب بالباطل .

وحظر عليهم الربا قليله وكثيره ، جليه وخفيه ، واعتبر آكل الربا محارباً لله ورسوله ، ولعن كل من شارك في أمر الربا لأنه امتصاص الضعفاء لحساب الأقوياء (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) [البقرة : ٢٧٨] ، «لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه» .

وحرم عليهم الاحتكار الذي هو سمة الرأسمالية الجشعة وأعلن رسول الإسلام : «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» .

وحرم عليهم السرف والتبذير ، وجعل للحاكم سلطة الحجر على المبذرين السفهاء :

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً) [النساء : ٥] .

(إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً) [الإسراء : ٢٧] .

وحرم عليهم ألوان الترف الذي يفسد الأفراد والأمم ، فالخمر ممنوعة ، وأواني الذهب والفضة محظورة ، ولبس

الذهب والحرير للرجـال محـرم : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) [الإسراء : ١٦] ، « من شرب في آنية ذهب أو فضة فانما يجرجر في بطنه نار جهنم » .

ثم حرم الكنز وأنذر القرآن الكانزين بوعيد تنخلع له القلوب (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون) [التوبة : ٣٤] . ولم يحارب الكنز بالقول بل بالعمل فالزكاة محاربة عملية لكل مال يكنز إذ ينقص منه كل عام ٢,٥ اثنان ونصف في المائة ، فإن لم يعمل ويستثمر استهلكته الزكاة .

وبهذه الأساليب من تحريم للربا والاحتكار والسرف والترف من جانب، ومحاربة للكنز وإيجاب للزكاة من جانب آخر ، أصبح مفروضاً على صاحب المال أن يوجه ماله إلى الاستثمار المشروع والنماء لمنفعة الجماعة، فيتحقق التوازن العادل الذي يريده الإسلام ويشير إليه قوله تعالى: (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) [الحشر : ٧] .

ومن ناحية أخرى أتاح الإسلام الفرص المتكافئة للفقراء ليقفوا على قدم المساواة مع الأغنياء ، فباب العمل والكسب مفتوح للجميع ، ليس محتكراً لطائفة ولامسدوداً أمام أحد فمن أحيا أرضاً ميتة فهي له ، ومن طرق باب تجارة

فربحها له ، ومن عثر في باطن الأرض على ركاز يدفع الخمس منه والباقي له .

ومن لم يجد عملاً وجب على ولي الأمر أن يهيىء له عملا ، فإن لم يهيىء له أو كان عاجزاً عن العمل ، أو كان أجره عن عمله لا يكفيه كان واجباً على ولي الأمر أن يرعاه ويهيىء له ماهو حق كل مسلم أو ذمي في ظل دولة الإسلام من مأكل ومشرب وملبس في الصيف وملبس للشتاء، ومسكن يكنه ويأويه كما قرر فقهاء الإسلام .

وللحاكم إذا لم تكف الزكاة ، والموارد العادية لسد هذه الحاجات أن يفرض على أغنياء المسلمين الضرائب الكافية التي تقيم مصالح المسلمين . . . وقد قرر علماء المسلمين هذا المبدأ : « إذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد » ، وقد اتخذ الإسلام طرقا مثمرة في تفتيت الثروات أبرزها تشريع الميراث الذي يوزع ثروة الرجل الواحد بين زوجته وأبويه وأولاده جميعاً ، أو عصبته أو ذوي أرحامه توزيعاً عادلاً حكيماً شمل الذكور والإناث ، لا الذكور فقط كما كان يفعل العرب في الجاهلية ، ولا الابن الأكبر فحسب كما تصنع بعض الدول اليوم كانجلترا مثلا .

الاغنياء في الإسلام ليسوا طبقة

ونظام الإسلام يتسع للأغنياء كأفراد يجمعون الثروات من حلها وينفقونها في حلها ولا يبخلون بها عند الحاجة اليها ، يتسع لهم كأفراد لا كطبقة لها مزايا شرعية ، أو حقوق

قانونية ،أو سيادة اجتماعية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، والأحفاد عن الأجداد. فجميع الناس أمام القانون وأمام الله وكتابه سواء، لا يتفاضلون إلا بمقدار وفائهم لإنسانيتهم وإيمانهم بالله واحترامهم لحقوقهم العامة: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [الحجرات :١٣] ، « الناس سواسية كأسنان المشط » .

وإذاً فالأغنياء إنما هم أفراد يثرون بجهدهم ونشاطهم ، وقد لا يدوم لهم الثراء، بل قد ينقص أو ينتقل ميراثه إلى غيرهم ، فالفقر أو الغنى في المجتمع الإسلامي ليس شيئاً ثابتاً مؤبداً، بل هو أمر دائم التغير بتغير ظروف الحياة وفرص الكسب، وقوانين الميراث .

ليس في الإسلام إذاً طبقات بهذا المعنى الذي كان معروفاً في الغرب ، بمعنى طبقة لها مزاياها وحقوق متوارثة كطبقة الحكام وطبقة الأشراف ، أو النبلاء وطبقة الفرسان وطبقة رجال الدين . . . الخ .

الحكام أفراد تختارهم الأمة بواسطة أهل الحل و العقد فيها أو بأي وسيلة تختارها، وليسوا من فئة أو أسرة معينة بل قال الرسول: « اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي يقودكم بكتاب الله » وقال عمر قبيل موته : « لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لاستخلفته » .

ونظام توارث الحكم والخلافة نظام دخيل على الإسلام فلا يقره ولا يعترف به .

والفقهاء في الإسلام ليسوا طبقة كهنوتية كرجال الأديان الآخرين ، إنما هم علماء متخصصون في دراسة الإسلام عقيدته وتشريعه وأخلاقه، فهم في الحقيقة علماء دين ، وعلماء قانون وعلماء أخلاق واجتماع وليسوا واسطة بين الله وعباده، ولا هم يملكون مفاتيح الجنة ولا هم باعة لصكوك المغفرة والرضوان .

لا طبقات إذن في الإسلام بالمفهوم الغربي لهذه الكلمة وإذا سمى بعض الناس الأفراد الأغنياء في دولة الإسلام طبقة فلا ضير في التسمية إذا وضحت المسميات فقد قسم بعض الباحثين الناس إلى ثلاثة طبقات : غنية وفقيرة وميسورة، وهو تقسيم على وجه التقريب والتشبيه كتقسيم الناس إلى أبيض وأسود وأصفر من حيث اللون . ووجود الطبقة بهذا المعنى أمر اقتضاه نظام الوجود كله الذي قضى بالاختلاف والتفاوت حتى بين النباتات والجمادات، فما بالنا بالانسان وبين أفراده من التفاوت ما لايوجد في أي نوع من الأنواع الأخرى للكائنات ؟

ولقد كان الإسلام دين الفطرة والواقع حقاً حين اعترف بالتفضيل الموجود فعلاً في كل بلاد الدنيا — رأسمالية أو شيوعية — قال تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض

في الرزق) [النحل : ٧١] (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) [الزخرف : ٣٢].

وإذا كان هذا صنع الله فالله لايصنع شيئاً عبثاً ، إنما يصنعه لحكمة بالغة ، والحكمة هنا كما ذكر القرآن أمران : أولهما : الابتلاء الذي على أساسه يقوم التكليف والجزاء: (ليبلوكم فيما آتاكم) . ثانيهما التسخير : (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) وهذا ليس تسخير القهر والاذلال كما يوهمه المدلول العرفي للكلمة ، إنما هو تسخير النظام والمصلحة المشتركة . فلو كانت الحياة مصنعاً لم يكن صلاحه أن يكون كل العاملين فيه مديرين أو مهندسين بل لا بد من المدير والمهندس والكاتب والعامل والخفير .

وإذا كان التفاضل في الرزق لايمنح صاحبه ميزه أومرتبة دينية أو تشريعية في المجتمع المسلم ، فإن التفاضل الحقيقي المعترف به ، هو التفاضل في مجال العلم والإيمان والعمل:

(هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) [الزخرف : ٩]

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) [المجادلة : ١١] .

(ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون) [الأنعام : ١٣٢] .

وهكذا أقام الإسلام العلاقة بين الغني والفقير على أساس العدل والمساواة والإخاء ، فهو يسوي بين الجميع في الحقوق

والواجبات العامة .

ويتيح الفرصة للجميع ليتكسبوا .

ويقول للأغنياء بعد هذا : (أنفقوا من طيبات ماكسبتم) . [البقرة : ٢٦٧]

ويقول لولي الأمر : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) [التوبة:١٠٣] .

ويقول للفقير: (لا تحقد و لا تحسد : (لا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم) [الحجر : ٨٨] . ثم يقول للجميع : « كونوا عباد الله إخواناً » .

وكذلك فإن الإخاء يسود المجتمع الإسلامي كله، فلم يحقد فقير على غني ، ولم يبغ غني على فقير، وشعر الغني أن الفقير أخوه ، وشعر الفقير أن مال الغني ماله . .

فلا عجب أن رأينا بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر ، وأبا هريرة وأهل الصفة يعملون جنباً إلى جنب مع عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن عبادة،لايشعرون إلا بالحب والتعاون والإخاء .

ومن السهل بعد هذا أن نعرف إذا كان الإسلام يشجع الطبقية أو يعترف بالإقطاع والإقطاعيين ! !

نظرة الإسلام الى الرق

جاء الإسلام فوجد العالم كله يعترف بنظام الرقيق: رق الأسرى في الحروب، ورق السبي في إغارات القبائل بعضها على بعض، ورق الاستدانة أو الوفاء بالديون .

فماذا كان موقفه؟ لم يرد نص واحد بالاسترقاق على حين وردت عشرات النصوص تدعو إلى العتق[1]، وتفتح أبواب التحرير للرقاب[1] ولم تدعه للأفراد وحدهم يكفرون به من خطاياهم أو يتقربون به إلى ربهم، بل جعله واجباً على الدولة تساهم به من مال الزكاة (وفي الرقاب) .

ولم يقتصر على فتح أبواب العتق ، بل قبل ذلك سد كل ما يمكن سده من منافذ الاسترقاق ولم يبق منه إلا ما أبقاه العالم المتحضر الآن . فإن الأمم التي اتفقت على معاهدات منع الرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى إلى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى ، على افتداء بعضهم بالغرامة أو التعويض. أما في عصر الدعوة الإسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين . وإذا كان ارتباط الأسرى ضربة لازب في الحروب الحديثة، فالإسلام لم يجعله حتماً مقضياً في جميع الحروب ، وحرص على التخفيف من شدته ما تيسر التخفيف منه وجعل المن في التسريح أفضل الخطتين (فإما منا بعد وإما فداء) [محمد : ٤] وشريعة تجعل الرق في أضيق نطاق وتوسع مجالات التحرير وترفع من شأن الرقيق فتجعله عضواً في الأسرة «إخوانكم خولكم» لا يمكن أن توصف بأنها تشجع الرق أو ملاك الرقيق، إنما هي في الحقيقة جاءت لتقوم بتصفية هذا النظام

(١) العتق – التدبير – الكتابة – الكفارات – امهات الأولاد – من ملك ذوي رحم محرم .

في العالم بتدرج حكيم وخطة مثلى . . فلم يكن من السهل إلغاء نظام تغلغلت جذوره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في يوم وليلة . . . فإن الزمن جزء من العلاج .

علاقة الحاكم بالمحكوم في الإسلام

الأمة في الإسلام هي الحاكمة وهي صاحبة السلطة .هي التي تختار حاكمها ؛ وهي التي تشير عليه ، وهي التي تنصح له وتعينه ، وهي التي تعزله إذا انحرف أو جار .

والخليفة في الإسلام ليس نائباً عن الله ، ولا وكيلا له في الأرض ، إنما هو وكيل للأمة ونائب عنها .

والخلفاء الراشدون لم يكونوا خلفاء عن الله بل خلفاء لرسول الله في حكم الأمة بما أنزل الله ، وسياستها بما أمر الله ورسوله.
أخرج الإمام أحمد عن ابن أبي مليكة قيل لأبي بكر : ياخليفة الله . قال : أناخليفة رسول الله ، وأنا راض به .

والحكومة في الإسلام ليست حكومة «دينية» بالمعنى المعروف في الغرب ، لأن الإسلام لا يعرف الانفصالية بين الدين والدنيا ، ولا يعرف سلطة الكهنوت ، ولا يعرف العصمة لأحد غير المرسلين في تبليغهم عن الله .

والحاكم أو الخليفة إذاً ليس معصوماً من الخطأ في تصرفاته ، وليس له قداسة ترفعه عن مستوى الناس ، كيف وهو فرد من الأمة ، جاءت به عن طريق الاختيار والبيعة وعليه أن يستشيرها ، ويأخذ برأي أهل الحل والعقد فيها ، وله عليها النصيحة والسمع والطاعة في المعروف ، فإن حاد عن

الطريق وأمر بمعصية فلا سمع له ولا طاعة .

وحين ولي الخلافة خطب خطبته الشهيرة فقال : «إني وليت عليكم ولست بخيركم، فان رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوموني ، القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ،فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» .

وعمر بن عبد الغزيز حين ولي الخلافة وبايعه الناس قام يخطب فقال: «إنما أنا كأحدكم غير أن الله جعلني أثقلكم حملا» .

هذا هو الخليفة ، ليس أفضل الناس وإن كان أكثرهم مسؤولية، هو وكيل للأمة بل هو خادم واجير لها .

يروي لنا الإمام البخاري عن عائشة قالت : لما استخلف أبو بكر قال : لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي، وقد شغلت بأمر المسلمين ، فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال، وسأحترف للمسلمين .

هذه هي وظيفة الحاكم محترف للمسلمين ، وبعبارة أخرى مستخدم أو أجير للأمة . هي التي وظفته وهي التي منحته راتبه، وهي التي تعينه إذا استقام، وتقومه إذا اعوج .

ويدخل العالم الجليل أبو مسلم الخولاني على معاوية أمير المؤمنين، فيقول له في صراحة : السلام عليك أيها الأجير، ويقول جلساؤه: قل السلام عليك أيها الأمير، فيقول أبو

مسلم : السلام عليك أيها الأجير فيعيدون قولهم ، ويعيد قوله ، وهنا يقول معاوية : دعوا أبا مسلم فهو أدرى بما يقول.

وكان من ثمرات هذا الفهم أن شعر كل مسلم بمسؤوليته وشخصيته في رعاية الحق والعدل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تخطىء امرأة خليفة على المنبر فلا يجد غضاضة أن يعلن على الناس : أصابت المرأة وأخطأتُ .

سياسة الإسلام في القتال والفتح

بعد ثلاثة عشر عاماً من احتمال صنوف العذاب والأذى وهجرة المسلمين إلى الحبشة مرتين ، وبعد أن أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق ، وتركوا إخوانهم المستضعفين في مكة يسامون سوء العذاب ، وبعد أن همت نفوسهم بالانتقام من الظالمين وردهم الرسول إلى الصبر وانتظار أمر الله قائلاً : «لم أؤمر بقتال ، لم أؤمر بقتال» ولما طال الصبر ولم يتحول المشركون عن اضطهادهم للمستضعفين ، ومصادرتهم الدعوة ، أنزل الله في شأن القتال : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) [الحج : ٣٩–٤٠] .

وابتدأ الصراع بين جبروت الشرك ودعوة الإسلام الذي استمر عدة أعوام وقعت فيها الغزوات المعروفة في السيرة

النبوية، وكانت كلها رداً على عدوان المشركين وغدر اليهود .

وفي الوقت الذي كان فيه الصراع دائراً داخل الجزيرة بين قوى الإيمان والشرك كانت هناك دولتان استعماريتان كبيرتان تتنازعان العالم إذ ذاك وتفرضان سيطرتهما على أجزاء من بلاد العرب . . . هما دولتا: فارس الوثنية التي تسيطر على العراق، والروم المسيحية التي تسيطر على الشام .

ولم يكن المسلمون في هذا الوقت بحيث يفكرون في فتح امبراطوريات ضخمة مثل فارس والروم أو العدوان عليها، وإنما بدأ هؤلاء بالشر والعدوان:

بدأت فارس حين أرسل كسرى – رداً على دعوة الرسول له – إلى واليه باليمن «باذان» يقول له: بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إلي برأسه، أيكتب إلي هذا الكتاب وهو عبدي ؟ ! !

ولم يكن هذا الغرور والاستهتار عند الفرس وحدهم، فإن الروم أيضاً بدأوا بالتحرش والعدوان ، فقتلوا مبعوث رسول الله إلى والي الروم ببصرى ، ولم يتركوا الحرية لمن شاء أن يسلم بل قتلوا وعذبوا . . . ثم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك بالأردن تنذر وتهدد ، وعلم النبي أنهم ينوون مهاجمته في عقر داره فكان من حسن السياسة أن

يبادرهم قبل أن يبادروه ، ويهاجمهم قبل أن يهاجموه،وبدأ قتال مرير بسرية «مؤتة» و« غزوة تبوك » واستمر في عهد الخلافة الإسلامية .

لم يكن المسلمون يبغون من ورائه إكراه أحد على دين، أو إعلاء جنس على جنس أو طلب منفعة، أو استرزاق، كيف وقد سئل نبيهم : يارسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليرى مكانه، والرجل يقاتل حمية — أي عصبية — فأيهم في سبيل الله ؟ فأجاب بالجواب الجامع : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

ولم يكن هذا الفتح فتح استعمار وسلب ونهب، وإنما كان إزالة للسلطات الطاغية ، وتأميناً للحريات، ونشراً لمبادىء العدل والمساواة . . .

أين هذا الفتح من فتوح أبادت أجناساً ، وقتلت شعوباً، وخربت دياراً ؟ وقد صدق جوستاف لوبون حين قال: «ماعرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب» .

العلاقة بين الرجل والمرأة

كانت المرأة في الجاهلية متاعاً أو كالمتاع لا تعرف لنفسها قيمة، ولا يعترف لها برأي أو إرادة حتى شك بعض الناس ألها روح أم لا ؟ وكانت نزعة الزراية بها والهضم لشخصيتها تسود العالم كله . . . حتى جاء الإسلام فأعلن كتابه: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) [الحجرات: ١٣] ، (من عمل

صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) [النحل: ٩٧] ، (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) [التوبة : ٧١] . (إن المسلمين والمسلمات) [الأحزاب: ٣٥] . وبذلك حطم الأغلال عن عنقها، وأظهر شخصيتها وأعلن مساواتها للرجل في الحقوق والواجبات إلا ما تقتضيه طبيعة كل منهما .

وحسبنا في هذا أن الله يقول: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) [البقرة : ٢٢٨] وأن النبي يقول : « إنما النساء شقائق الرجال » .

وخلق حواء من ضلع آدم — الذي يقال إنه يوحي بطغيان الرجل على المرأة — لم تدل عليه آية صريحة في القرآن، وما ذكره في ذلك بعض المفسرين رده عليهم آخرون، والذين ذكروه إنما استمدوه مما ذكر في (سفر التكوين) من العهد القديم، وقوله تعالى:

(خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها) [النساء: ١] ، كما علل ذلك في آية أخرى: (ليسكن إليها) وذلك كقوله مخاطباً للجميع : (خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها) [الروم : ٢١] أي من جنسكم . كل ما للرجل من ميزة هو الدرجة التي ذكرها الله (وللرجال عليهن درجة) [البقرة : ٢٨٨] وهي درجة القوامة والمسؤولية عن البيت (الرجال قوامون على النساء) [النساء: ٣٤] . ليست درجة القهر والعنف ، ولا درجة الاستبداد ، إنما هي الرياسة التي تقتضيها الفطرة ، ويوجبها الواقع

وطبائع الأمور . وهذه الرياسة لا تنال من حريتها الدينية ، ولا حريتها الفكرية ، ولاحريتها المدنية ، ولا تصرفها في أحوالها الشخصية ، ولا تهضمها حقاً مقرراً لها .

إن إعطاء القيادة للرجل أمر طبيعي ، فالحياة لا تنتظم من الوحدة الصغيرة إلى الوحدة الكبيرة ، إلا بقائد أو مسؤول ، والرجل أولى وأحق بهذه القيادة ؛ لأنه القائم بجلب القوت والمنفعة ، وبالمسؤولية عن رعاية البيت وحمايته ، وهو أشد قوة وأعظم قدرة من المرأة . . بل كما ذكر في عالم الحيوان نراه أقوى من الأنثى . . . نرى ذلك في الديك والدجاجة والكبش والنعجة . . . الخ ، سنة من سنن الله .

وما يذكره بعض الجاهلين بالإسلام « شاوروهن وخالفوهن » فليس له أساس صحيح في دين الله ، بل فيه مايناقضه وينقضه ، تقرأ ذلك في القرآن وفي السنة ، فالقرآن يجعل للمرأة حق المشاركة وإبداء الرأي في رضاع ولدها وفطامه وتربيته (فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) [البقرة : ٢٣٣] والسنة تجعل للأم رأياً في زواج بناتها : « آمروا النساء في بناتهن » وتجعل الرأي الأخير للبنت نفسها : « البكر تستأذن ، وإذنها صمتها ، والثيب أحق بنفسها » .

الإسلام والعلم

إذا كانت بعض الأديان تقول : أطفئوا نور العقل . . أطمسوا عين البصيرة . . . أو تقول : اعتقد وأنت أعمى . . أو

آمن ثم اعلم . . . فإن الإسلام يقيم عقيدته من أول الأمر على أساس من النظر والتفكير لا التبعية والتقليد :

(قل إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) [سبأ : ٤٦] .

(قل انظروا ماذا في السموات والأرض) [يونس: ١٠١]

(أولم يتفكروا في أنفسهم) [الروم : ٨] .

(أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض) [الأعراف: ١٨٥] .

والقرآن هو الكتاب الذي يهيب بتاليه وسامعه دائماً: (أفلا تتفكرون . . . لو كانو يعلمون . . . أفلا تبصرون . . . إن كنتم تعلمون . . . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . . لقوم يتفكرون . . لقوم يعلمون . . آية للعالمين) .

والعلم في الإسلام يقوم على الإيمان ، والإيمان ثمرة له، ومترتب عليه، اقرأ قوله تعالى: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به . . . الآية) [الحج : ٥٤].

والعلم الكوني في القرآن سبيل إلى خشية الله تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه ، كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) [فاطر : ٢٧ — ٢٨] .

وما ذكر في الآيتين يشير إلى علوم الفلك والنبات والجيولوجيا والحيوان . . وكلها علوم كونية، والقرآن يمجد العلم من

حيث هو علم، ولا يسوي بين من يعلم ومن لا يعلم، بغض النظر عما يعلمه: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) [الزمر : ٩] .

ويحترم الاختصاص في كل فرع من فروع المعرفة، ويرد الناس إليه : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) [النحل : ٤٣] .

ولا يرضى للمسلم أن يسير وراء الوهم أو الظن ويحكم بغير بينة أو علم : (ولا تقف ماليس لك به علم) [الإسراء : ٣٦] ، (إن الظن لا يغني من الحق شيئاً) [يونس : ٣٦] .

ويحارب التقليد والجمود على موروثات الآباء : (وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أوَ لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) [البقرة : ١٧٠].

كتاب يهيب بالعقل البشري مثل هذه الإهابة، ويصيح به هذه الصيحة المدوية لا يمكن أن يخشى نتيجة النظر أو التفكير، وما يستتبع ذلك النظر من حقائق ومعلومات !

والقرآن أنزله الله كتاب هداية وتوجيه وتشريع ، وليس من مهمته التحدث عن نظريات العلوم الكونية أو الطبيعية، وحسبه أن يدعو الناس للوصول إليها بوسائلهم وجهدهم ، ولم يمنع هذا أن يشير أثناء حديثه عن الكون وما فيه من آيات إلى حقائق علمية كانت مجهولة للبشر ، كشف الزمن عن صدقها . وقد ألف علماء متخصصون مخلصون في التنبيه إليها

كتباً شتى ، ومن حسن الحظ أن هذه الكتب لم يؤلفها أحد من علماء الدين الذين اطلعوا على علوم الكون، بل ألفها في الغالب متخصصون في هذه العلوم اطلعوا على الدين وعلى القرآن الكريم .

ومع أننا لا نوافق على كل مافي هذه الكتب ، ولا على منهج بعضها، فإنا نجد في مثل هذه الكثرة من الكتب أدلة واضحة على أن القرآن في نظر المتبحرين في العلوم الحديثة ليس غير مصادم لها فحسب، بل هو هاد إليها ودال عليها، وسابق في بعض الأحيان لما قررته .

والقرآن لا يعارض حقيقة علمية قاطعة، ولكنه قد يعارض بعض الآراء والفروض والنظريات التي لم تصل بعد إلى مرتبة الحقائق الثابتة، ولا ضير على القرآن في هذا . فكم من آراء ونظريات كانت عند أصحابها في مرتبة اليقين الذي لاريب فيه، فإذا كر الغداة ومر العشي وتطور البحث العلمي يجعلها أوهاماً في أوهام .

وحسبنا ماكان يعتقده بعض من عرفوا بفلاسفة المسلمين : كأبي نصر الفارابي وأبي علي بن سينا ، من إيمانهم بالنظريات الفلكية اليونانية إيماناً جعلهم يؤولون آيات القرآن ؛ فالأرض عندهم مركز الكون ، والأفلاك عندهم لا تقبل الخرق ولا الالتئام، والعناصر أربعة لا زيادة فيها . . . الخ ثم يثبت العلم التجريبي أن هذا كله باطل لا يقوم على أساس فذهبت ظنونهم . . . وبقي ماهدى إليه القرآن : (فأما الزبد فيذهب

جفاء، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض) [الرعد: ١٧]

ولكن المعتدلين من المفكرين المسلمين لم يجدوا في آيات القرآن شيئاً يناقض ماذهبوا اليه أو وصلوا إليه من ظواهر الطبيعة أوحقائق العلم، ومن هؤلاء البيروني العالم المؤرخ الفيلسوف المعروف.

وننقل هنا ماقاله المستشرق الألماني «دي بوير» في كتابه «تاريخ الفلسفة في الإسلام»[١] قال: «لا شك أن البيروني كان سنياً مستنيراً، وهو لعلو كعبه في العلم وسعة فكره، وتنوع معارفه، وتفطنه للحدود التي لا يصح أن تتجاوزها أحكام التجربة الإنسانية المعتمدة على المشاهدة — يتمسك بحقائق الدين العميقة فلا يعجبه التأويل الهازل للقرآن، ولا الانكسار المتحذلق — من غير أساس كاف — لما يروى من غريب الأفكار. وهو يتمسك بالقرآن فيؤلف مثلاً كتاباً جليلاً يسمى «لوازم الحركتين» مقتبساً أكثر كلماته عن القرآن « معجم الأدباء »لياقوت ج ٦ ص ٣١١».

ويقول في كتابه عن الهند ص ١٣٢: إن القرآن لم ينطق في أمر صورة السماء والأرض وفي كل شيء ضروري بما يحوج إلى تعسف في التأويل. فهو في الأشياء الضرورية معها حذو القذة بالقذة، ولم يشتمل على شيء مما اختلف أيسر من الوصول اليه...

(١) ص: ٣٠٢، ترجمة الدكتور عبد الهادي ابو ريدة.

ويصف البيروني كيد مظهري انتحال الإسلام له، وإدخالهم مــا في كتبهم فيه مستغلين تصديق ذوي القلوب السليمة — الساذجة — لهم . وفي بعض الأحيان يذكر الزنادقة من أصحاب ماني ويذكر الحركات والاتجاهات غير الإسلامية ناقداً لها «راجع كتابه عن الهندص : ٧٦ — ١٣٢ الآثار — ٢١٠ ٢١٤ — ٢٦٤ — ٢٦٥ — ١٩٦» .

هذا هو الإسلام الذي قامت على أساسه حضارة علمية واسعة ممتدة في وقت لم تكن أوروبا ترى فيه النور إلا من سم الخياط ، وفي تاريخه الطويل لم يضق صدره بعالم أو باحث كما حدث في أوروبا من معارك بين العلم والدين ومجازر تقشعر لها الأبدان .

وما نقل من حوادث فردية وقع فيها صدام بين من اشتغلوا بالفلسفة وبين الفقهاء وعلماء الكلام ، فما كان صداماً مع علم سليم الأسس والقواعد ، بل كان صداماً على الجانب الميتافيزيقي الإلهي من الفلسفة الإغريقية بالذات ، وهو جانب يبحث في أمور قطع الوحي فيها برأي حاسم لا مجال بعده لتخمين العقول ، وافتراض الفروض ، وإضاعة الأوقات في غير نفع ولا فائدة للإنسان والحياة .

مصادر الإسلام

للإسلام مصادر محددة ، تعرف منها رسالته ووجهته ، ولا يمكن أن يحكم له أو عليه بالاستمداد من غيرها ... وتنحصر هذه المصادر فيما يلي :

اولاً : القرآن الكريم

وهو مصدر إلهي بلفظه ومعناه، ليس من عمل محمد، وإنما هو قول رسول كريم هو جبريل، تلقاه من لدن حكيم عليم، ثم أوحاه بلسان عربي مبين على قلب محمد فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ من أستاذه نصاً من النصوص ولم يكن له عمل بعد ذلك إلا :

١ ـ الوعي والحفظ : (سنقرئك فلا تنسى) [الأعلى: ٦]

٢ ـ الحكاية والتبليغ : (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث، ونزلناه تنزيلا) [الإسراء: ١٠٦] .

٣ ـ البيان والتفسير: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم) [النحل : ٤٤]

٤ ـ التطبيق والتنفيذ : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) [النساء: ١٠٥] .

وقد نقل إلينا هذا القرآن كاملاً متواتراً ، نقلته أجيال عن أجيال تلاوة بالألسنة وحفظاً في الصدور، وكتابة في المصاحف، وشهادة التاريخ بتواتر هذا الكتاب شهادة ناصعة لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ظهر على وجه الأرض . . .

هذا الكتاب هو المصدر الوحيد لعقائد الإسلام، وهو المصدر الأول لنظمه وتشريعاته وآدابه وتوجيهاته .

وقد تلقاه المسلمون بالشرح والتفسير والتحليل كل في مجال عمله واختصاصه واستنبطوا منه أحكام دينهم وأصول مجتمعهم . . . هذا في مجال العقيدة، وذاك في مجال الفقه والتشريع، وثالث في مجال الآداب والأخلاق .

وقد وضعوا الأسس السليمة، والقواعد المتينة لفهم هذا الكتاب والاستنباط منه وفق ماعرفوه من أساليب لغتهم العربية، وما خطه لهم النبي من توجيهات، وما فهموه من جملة تعاليم الإسلام و روحه العامة. . .

ولم يجد هؤلاء العلماء في آيات هذا الكتاب إلا التناسق والائتلاف، فهي يصدق بعضها بعضاً، ويفسر بعضها بعضاً، وما يظنه القاصرون - الذين يجهلون أسرار العربية وأساليبها - تعارضاً أو اختلافاً، فما هو بالتعارض ولا الاختلاف . . . وإنما هي نصوص عامة تقيدها نصوص خاصة أو آية مطلقة تفسرها آية مقيدة . . . وهكذا: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[النساء: ٨٢] .

نعم إن في القرآن آيات محكمات وأخر متشابهات، كما قال تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب) [آل عمران: ٧] .

وليس المحكم هو الواضح، والمتشابه هو غير الواضح أو غير المفهوم، كما يظن أو يقال، فالقرآن كله واضح مبين، وإنما المحكم: هو المقطوع بدلالته جزماً، والمتشابه هو: مااختلفت الأذهان في دلالته . ولعل سائلاً يسأل : لماذا لم ينزل القرآن كله محكماً ويريح الناس من التشابه ؟

ومن عرف حكمة الابتلاء والتكليف للإنسان أولاً ، وعرف طبيعة اللغات وتنوع دلالتها ثانياً، وعرف طبيعة بني آدم واختلاف عقولهم واتجاههم ثالثاً، وعرف عموم القرآن لكل البيئات والأزمان، والأجيال المتطورة رابعاً، وعرف طبيعة الإسلام الذي يحث على إعمال العقل والاجتهاد والاستنباط خامساً . . . من عرف هذا كله لم يشتبه عليه الأمر ولم يحتج إلى هذا السؤال، بل قال ماقاله الراسخون في العلم: (آمنا به كل من عند ربنا) .

لقد اقتضت حكمة الله أن تكون الآيات المحكمات في كتابه ، هي الأصول التي لا خلاف عليها ، والأسس التي يرد غيرها إليها ، والمحور الذي يلتف حوله الجميع ، أما الآيات الأخرى فقد جعلها الله من السعة والمرونة بحيث تتسع لمختلف الأفهام المعقولة في شتى البيئات والعصور بحيث يعذر بعض الفاهمين بعضاً ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، وشعارهم تلك الكلمة الحكيمة: «نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه» وبهذا يكون القرآن مصدر تجميع لا مثير تفرقة، يكون كتاباً للإنسانية

كلها ، في كل أحوالها ، وجميع أزمنتها وشتى بلادها ولو كانت كل آية محكمة قاطعة الدلالة ، لكانت هذه هي النقمة الكبرى التي تغلق على المجتهدين باب الفهم ، وتطفىء تألق الفكر ، وتشل حركة العقل . . . ولا يليق إلا بصنف واحد من الناس، ولزاوية واحدة من النظر، وما لهذا أنزل الله القرآن : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) [الفرقان: ١] .

ثانياً: السنة

وهي الأقوال والأعمال الثابتة عن محمد رسول الله، وضح بها مجمل القرآن، وفسر بها مراد ربه ، وطبق بها شرائعه وآدابه تحقيقاً لقول الله (لتبين للناس ما نزل إليهم)[النحل: ٤٤]

هذه السنة هي المصدر الثاني في تعرف نظام الإسلام وتعاليمه . . . ، وإذا ثبت أن محمداً رسول موحى إليه، كان لما يقوله ويهدي إليه في تبيين هذا الإسلام، وتوضيح معالمه وتطبيقه في الحياة ، منزلة الوحي المعنوي : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) [الحشر: ٧] .

هذه السنة مشت في رحاب القرآن، وعبرت عن روحه شارحة وموضحة وتركت للناس أبواب الفهم والتجديد في أمور حياتهم المتطورة، التي تتصل بوسائل المعايش التي تتغير بتغير البيئات والأزمان، وفي ذلك يقول رسول الله: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» .

وقد وجدت هذه السنة من الرعاية في حفظها، وجمعها، وتنقيتها من الدخيل عليها ما لا يزال التاريخ العلمي يذكره بالفخر والإعجاب . . .

فقد حاول أعداء الإسلام أن يدسوا فيها ماليس منها، ليكدروا نقاءها، فوضعوا أحاديث مكذوبة وروايات ملفقة ونسبوها زوراً إلى رسول الله منتهزين ماحاق بالمسلمين من فتن في فترة من الدهر، ولكن سرعان ما وقف الأفذاذ من سلف هذه الأمة الذين كرسوا حياتهم يطوفون البلاد، ويجوبون القفار، بحثاً عن صحيح السنة، وكشفاً عن زائفها. . . وكان العهد قريباً بالرسول وصحابته، والأمة العربية أمة حفظ ووعي، فوضع هؤلاء العلماء الأصول والقواعد للرواية، وبحثوا عن الرجال، وجرحوا وعدلوا، وألفوا الكتب الكثيرة في التاريخ والسير والأسماء، ولم يأخذوا إلا عن ثقة عدل حافظ ضابط حتى لقد أفردوا كتباً للثقات من الرواة، وكتباً للضعفاء، وذلك جهد لم يعرف لأمة في صيانة تراث نبيها...

وما يقال : إنهم اهتموا بسند الحديث ورواته دون موضوعه أو متنه ، فهذا كلام غير صحيح لأنهم اهتموا بالموضوع أيضاً فردوا الحديث الشاذ المخالف لما عرفوا من أصول ، وردوا الأحاديث لعلل قادحة تتصل أحياناً بالموضوع كما تتصل بالسند . . .

نعم إنهم وجهوا جل همتهم إلى السند والرواة لأن الموضوع

تختلف العقول في قبوله ورده حسب عصورهم وثقافاتهم... وما كان يعتبر صحيحاً مقبولاً بالأمس، قديعد خطأ مرفوضاً اليوم، وبالعكس .

فقاموا بما عليهم في نقد الرواة وتجلية حالهم ، وتركوا لمن يأتي بعدهم الحكم على موضوع الحديث بما يتفق وما عندهم من وسائل الفهم وموازين النقد . . .

ثالثاً : الاجتهاد

لم يشرع الإسلام في مصدريه: القرآن والسنة للمسلمين في كل شيء، فيضيق عليهم فيما لهم فيه فسحة، ولم يدع التشريع في كل شيء فيتركهم تائهين بلا أصل يعتمدون عليه، ولكنه شرع وحدد فيما لا مجال للرأي فيه كالعبادات وفيما لا يختلف باختلاف الأزمان والأحوال كالقواعد الكلية، والحدود والكفارات والمواريث وأكثر شؤون الأسرة.

وترك التشريع أو النص أو التحديد فيما يختلف باختلاف الأوقات والبيئات ، وأعطى بذلك العقل الإنساني حقه في الاجتهاد والقياس والاستنباط ، وجعل للمجتهد أجراً إذا أخطأ ، وأجرين إذا أصاب .

وعلى هذا الأساس قامت حركة فقهية تساير تطور الزمن وحاجة الناس . . . وقال الفقهاء: «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من أمور » .

ولم يوضع الفقه في عهد الخلافة العباسية — كما قال بعض الجاهلين — بل وجد الفقه منذ عهد الرسول، ونما في عهد الصحابة، وزاد نمواً في عهد التابعين، وكان تدوينه في عهد العباسيين .

وهنا لا بد أن ننبه إلى الفـــرق بين الشريعة الإسلامية، والفقه الإسلامي .

فالشريعة هي: النصوص المقدسة من الكتاب والسنة الثابتة، والفقه هو: استنباطات الفقهاء في دائرة النصوص ، أوفيما لا نص فيه .

الشريعة: ثابتة لا تتغير ولا تتطور، والفقه مرن متحرك يتغير ويتطور، الشريعة وحي الله والفقه عمل الإنسان[1].

ولكن مهما قلنا: إن الفقه من صنع العقل الإسلامي، فإن فقهاء الإسلام كانوا يحرصون حسب طاقتهم على أن يكون اجتهادهم داخل إطار الشريعة، وتبعاً لها محاولين التحرر من الهوى والذاتية ما استطاعوا . . .

ولم يهدف الفقهاء في فقههم إلا إلى ماهدفت إليه الشريعة، من رعاية مصالح العباد، من ضروريات، وحاجيات، وتحسينات — كما عبر الشاطبي.

ولم يهدفوا إلى رعاية مصلحة خاصة لطائفة أو فرد أو

(١) راجع مقال الدكتور محمد البهي في « مجلة الأزهر » ، تحت عنوان مع المذاهب الإسلامية . عدد صفر ١٣٧٩ هـ .

خليفة، كيف وكلهم رفضوا المناصب والقربى من الخلفاء، وتحملوا الأذى في سبيل تجردهم العلمي.

رفض أبو حنيفة القضاء وتقبل السجن راضياً، وروي أنه مات فيه .

وضرب مالك بالسياط في سبيل أن يغير أو يكتم رأياً رآه فأبى .

وأوذي الشافعي من أجل تجرده وأمانته.

واحتمل أحمد بن حنبل من العذاب مالا يحتمله إلا المؤمنون الأبطال .

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم مؤسسو المذاهب السنية المشهورة في المسلمين .

وهذه المذاهب الأربعة وغيرها لا تلزم المسلمين باتباع أحدها، إنما هي اجتهادات لأصحابها الذين لم يزعموا لأنفسهم العصمة، ولم يلزموا الناس بتقليدهم يوماً ، ولم ينظر واحد من هؤلاء الفقهاء إلى غيره نظرة التعصب أو الخصومة، بل نظرة ملؤها التسامح والمودة، وتقدير آراء الآخرين.

قال أبو حنيفة: هذا رأينا، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه .

وقال مالك: كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وقال الشافعي: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب .

وما عرف في بعض العصور والأقاليم من التعصب لمذهب ضد غيره، فهو ثمرة من ثمرات الجهل ، والتأخر العقلي الذي أصيب به المسلمون حينذاك والإسلام وفقهاء الإسلام منه براء .

ونحب أن نقرر هنا أن الخلاف بين المذاهب السنية، وبين الشيعة المعتدلة ليس خلافاً جوهرياً يمتد إلى أصول العقيدة، وإنما وسع الهوة بينهما أهواء الحكام، ودسائس خصوم الإسلام، فالجميع ، من سنيين وشيعة، يؤمنون بإله واحد ؛ ويقدسون كتاباً واحداً ، ويتبعون رسولاً واحداً ، ويتجهون إلى قبلة واحدة.. هم جميعاً يقيمون الصلاة، ويؤدون الزكاة ويصومون رمضان ، ويحجون البيت إن استطاعوا إليه سبيلا.

إن في الفقه الإسلامي ثروة من القواعد والتطبيقات والنظرات العميقة في كل مجال من مجالات الحياة: أسرية ومدنية ، وجنائية، ودستورية، ودولية، اعترفت بقيمتها وصلاحيتها المؤتمرات الدولية التشريعية الحديثة كمؤتمر «لاهاي» وغيره .

وهي ثروة صالحة لأن يقوم عليها صرح تشريعي مكين

إذا توفر أرباب الفقه والقانون عليها . .، وفعلاً قد اقتبس واضعو القوانين المدنية في البلاد العربية منها كثيراً من المواد والقواعد . . .

وبعد: فإن مبادىء الإسلام هي أفضل المبادىء لإصلاح الأفراد وإسعاد الأسر، وتنظيم المجتمعات، وتوجيه الحكومات وهداية الإنسانية كلها إلى الصراط المستقيم .

بيد أن المبادىء وحدها لاتغني إذا لم تجد رجالاً يؤمنون بها، وينقلونها إلى واقع تراه الأعين ويلمسه الناس، وبدون هذا سنظل نردد قول القائل:

«ياله من دين لو كان له رجال» .

وحسبنا أن تعلم أنه حين تهيأ للإسلام حكم عادل، وخلافة راشدة في عهد عمر بن عبد العزيز رأت الدنيا في مدى عامين (٩٩ — ١٠١ هـ) من العدالة والنظام، والقوة، والرخاء مالم تحققه عشرات السنين من بعد .

فمن كان يريد أن يستدل بالتاريخ فليستدل بأمثال هذه السيرة المنيرة . . . وإلا فليعرف الإسلام من كتابه المنزل، وسيرة نبيه الثابتة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.



الفهرس

